

الموت في الظهيرة

حسن حجاب الحازمي*

[فازت هذه القصة بجائزة تشجيعية في مسابقة
القصة القصيرة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية]

في البدء كنت نائماً، لكنني استيقظت على صراخ
طفلة كانت تقض مضجعي كلما احتواني النوم.

لم أكن متزوجاً، ولم تكن الطفلة طفلي، ولم يكن الصراخ
منبعثاً من حجرتي؛ لكن الصراخ ظل يؤرق نومي طوال الليل.

وحين استيقظت للمرة العاشرة، سألتني أخي الذي يشاطرنِي
هواء الغرفة.

- لماذا لا تنام؟

قلت له صراخ طفلة يؤرقني ولا يدعني أنام.

غرس عيونه في أسطر كتابه الذي يقرؤه، وتغمض صاحكاً:

طفلة، تزوجت وأنجبت في دقائق، أي سعيد هذا؟!

ولأنني كنت نائماً لم أع ما قاله تماماً: تدثرت بالقلق وعادوت
النوم مرة أخرى.

لكنني استيقظت:

أيقظني أخي، كان يحمل كوباً من الماء، وملاحه تشي
بانزعاجه.

وحين اعتدلت في سريري، وشربت كوب الماء، وجففت
العرق الذي كان يغرقني، سألتني أخي:

- لماذا كنت تصرخ؟ هل ماتت طفلتك؟

كَيْفَ تَرْقَى رُقِيَّتَكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ

ونقول أين نحن من أولئك؟ أَعِدِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ فِي مُجْتَمَعَاتِ
المسلمين اليوم، سَيَرْتَدُّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ حَسِيراً، وَيَطِيرُ بِلَبَّكَ مَا تَرَاهُ
مِنَ الذُّلِّ والهوان، في البوسنة والشيخان.

ذَلَّ مَنْ يَغِيظُ الدَّلِيلَ بِعَيْشٍ رَبٌّ عَيْنٍ أَخَفَّ مِنْهُ الْحِمَامُ

شَتَانٌ بَيْنَ مُجْتَمَعَاتِ المسلمين اليوم ومُجْتَمَعِ المسلمين الأوائل
الذين كانوا يُسَيِّرُونَ دِفَّةَ التاريخ، وكانت أَعْمَالُهُمْ تُسَطِّرُ لَهُمْ فِي
التاريخ أُنْهَى مجد وأعزّه وأعظمّه وأجلّه، وهي مُرْتَبِطَةٌ بالهجرة
ارتباطاً الْمُسَبَّبُ بالسَّبَبِ، وَمِنْ ثَمَّ حَقٌّ لَأَمِيرِ الشُّعْرَاءِ أَنْ يَقُولَ عَنْ
المصطفى ﷺ.

أَنْتِ وَالنَّاسُ فَوْضَى لَا تَمُرُّ بِهِمْ
وَالْأَرْضُ مَمْلُوءَةٌ جَوْرًا مُسَخَّرَةٌ
وَالْخَلْقُ يَنْتَكِ أَقْوَامُهُمْ بِأَضْعَافِهِمْ
شَرِيعَةً لَكَ فَجَزَتْ الْعُقُودُ بِهَا
سَرْعَانَ مَا فَتَحُوا الدُّنْيَا لِلتَّيْهِمِ
إِلَّا عَلَى صَنْمٍ قَدْ هَامَ فِي صَنْمٍ
لِكُلِّ طَاغِيَةٍ فِي الْخَلْقِ مُحْتَكِمٍ
كَاللَّيْلِ بِالْبُهِمِ أَوْ كَالْحَوِثِ بِالْبَلَمِ (١)

وَحَقٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعاً أَنْ يُصَلُّوا عَلَيْهِ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا كَثِيرًا،
امْتِثَالًا لِأَمْرِ بَارِي الْكَوْنِ وَمُحْيِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَنْ يُرَدِّدُوا مَعَ
الشاعر حسين عرب قوله:

سَلَامًا أَبَا الزُّهْرَاءِ مِنْ قَلْبِ هَائِمٍ
يُبْعَثُ الْبِنَا رَحْمَةً وَهَذَا يَئِةً
إِلَى طَيِّبَةِ الْغُرَاءِ أَهْدِي نَجِيَّتِي
إِلَى الْمُصْطَفَى أَهْدِي صَلَاتِي مُسَلِّمًا
وَكُلُّ فَوَادٍ فِي صَفَاتِكَ هَيَّامٍ
إِلَى النَّاسِ مِنْ غُرَبٍ فِصَّاحٍ وَأَعْجَامٍ
أُجَدُّدُهَا فِي كُلِّ عَامٍ وَأَغْوَامٍ
عَلَيْهِ مَدَى عُمْرِي وَعِدَّةُ أَيَّامِي



(*) قاص سعودي، يعمل معيداً في كلية المعلمين المتوسطة بجيزان.

(١) البلم: صغار السمك.

قلت له: أي طفلة؟

قال: تلك التي تورقك من أول الليل.

ولأني ما زلت نائماً، لم أع ما قاله تماماً.

اندسست في دثاري، وعادت النوم مرة أخرى.

غابت الطفلة عن ذاكرتي، وغاب عني صوتها المبحوح، ووجهها الذي يضئته اللهب، وبيتها الذي ترسمه بالدمع، وأهلها الذين لم تزل تبحث في الركاب عن بقاياهم، وذلك الضياع في عينيها.

غاب عني كل ذلك، ولمحتني من بعيد...

يا إلهي! هذا أنا! هذه ملاحي الطفولية، التي خبأها لي أبي، في صورة يقهري وجهها كلما تقدّم بي العمر، كم كنت بريئاً وطيباً!!

ما أجمل أن ترى نفسك وأنت طفل! لتعرف كم كنت نظيفاً، رغم الأتربة التي تلتصق ثيابك.

كنت أسير وحيداً، أحمل في عيني براءة الأطفال، وفي يدي قطعة حلوى، ابتعتها للتو.

وبينا القطعة تدنو من فمي، وداخلي يضجّ بالسعادة، امتدت يد شخص لا أعرفه، وانتزعت مني قطعة الحلوى، ومدّ كفّه الأخرى وصفعني؛ ولأني لم أكن أجيد إلا البكاء بكيت.

وعلى بكائي وصراخي تجمّع كل إخوتي، كانت العصي تلمع في أيديهم وكنت أتوقع أن يهشموا رأسه، ويعيدوا إليّ قطعة الحلوى؛ لكنهم لم يفعلوا، ظلت العصي ترتعد في أيديهم، وهو يلتهم قطعتي، وأنا أبكي... وغابت الصورة عن ذاكرتي، وغاب عني صوتي المبحوح. ولم تزل دمعتي الجريئة تنخر في ذاكرتي حتى استيقظت.

أيقظني أخي، كان يحمل كوب ماء، وملاحه تشي بانزعاجه، وحين اعتدلت وشربت كوب الماء، وجففت العرق الذي كان يغرقني، سألتني أخي:

- لماذا كنت تصرخ؟ هل ماتت طفلتك؟

ولأنني كنت ما أزال نائماً لم أع ما قاله تماماً.

ترملت بالصمت، وغرقت في النوم مرة أخرى.

ولمحتني من بعيد، بهيئتي التي أنا عليها الآن.

كنت أسير وحيداً، أحمل رأسي فوق جثتي، وأحمل مع رأسي همّي الذي لا يفارقني «... ..»

ما أجمل أن تراه نفسك وأنت

طفل لتعرف كم كنت نظيفاً

رغم الأتربة التي تلتصق ثيابك

وفجأة اعترضتني عصابة، تقدّم قائدهم وأخذ من يدي عدّتي، ورمأها لأصحابه، وقال لهم:

حقله لنا منذ اللحظة.

قلت له: لماذا حقلني أنا بالذات؟!

قالوا بصوت واحد: حقلك وحده الذي يجود بالسنابل الفتية.

وحين رفعت صوتي محتجاً، جرّد القائد سيفه من غمده، وحزّ رأسي. كنت أصرخ ورأسي في يده، لعلّ أحداً يسمع صراخي ويأتي، ولحسن حظي، حضر كل إخوتي، وسيوفهم في أيديهم، ابتهجت جمعتي وهي في يد القائد بعيداً عن جثتي. وعندما رأى القائد ابتهاج جمعتي بمقدم إخوتي، أعادها إلى جثتي، عندها قلت لإخوتي:

- خذوا بثأري ولا تتركوا حقل أيّنا...

وكان لدي كلام كثير، لكن القائد لم يمهلني، بل عاد وحزّ رأسي مرة أخرى.

ولما حاول إخوتي انتزاع سيوفهم من أغمادها لم يقدرُوا.

كان الصدا قد ألصقها في أغمادها.

رأسي في يد القائد يقطر دماً، وإخوتي يحاورون الصدا.

عيوني في محاجرها تستصرخهم، والقائد يمسك بشعر رأسي، ورأسي يتدلى ويقطر دماً، وإخوتي ما زالوا يحاولون انتزاع سيوفهم من أغمادها، لكنهم لم يستطيعوا... وعندها استيقظت.

أيقظني أخي، كان يحمل كوب ماء وملاحه تشي بانزعاجه، وحين اعتدلت في سريري، وجففت العرق الذي كان يغرقني سألتني أخي:

- لماذا كنت تصرخ؟ هل ماتت طفلتك؟

ولأنني كنت ما أزال نائماً لم أع ما قاله تماماً.

رفعت رأسي محتجاً فجرد سيفه من غمده وحز رأسي .. وكنت أصرخ ورأسي في يده

تدثرت بالصمت وغرقت في النوم من جديد...

ولمحتُ جدِّي من بعيد.

كان يقف في وسط الحقل شامخ الرأس، لا ينجني هامته إلا لمبدع هذا الكون. كان جدِّي فارغ الطول، هامته تلامس السحاب، وكانت الأشجار الطويلة تصل إلى مستوى ركبتيه، والسيل العظيم يصل إلى منتصف ساقه. كان السيل العظيم يمرّ قوياً، يقتلع الأشجار والمنازل في طريقه، ويظلُّ جدِّي شامخاً في وسط الحقل، يمرّ السيل بين ساقه ولا يجرّكه.

ولمحته من بعيد، كان يقف كعادته شامخ الرأس وسط الحقل، وكانت الشمس توزع الدماء فوق صفحة الأفق، عندها طلب جدِّي من أولاده وأحفاده أن يجمعوا عصياً، ولما أحضروها، جمعها جدِّي في قبضته وربطها بحبل، وأعادها إليهم فرداً فرداً لكي يكسروها فلم يستطيعوا: عندها ابتسم جدِّي وقال لهم:

- كونوا كهذه العصي، ومثلها لن تكسروا.

قال عبارته ومات، مات جدِّي، مات، مات...

كنت أصرخ كالمجنون وأبكي، أبكي بحرقة.

لم أكن أبكي موت جدِّي فحسب، لكنني كنت أبكي وحدة العصي، لأن جدِّي حين مات ارتخت يداه، وتبعثرت العصي.

ورغم أنني غرقت في دموعي، إلا أن أخي لم يتمدّد في حلمي هذه المرة، وغرقت في النوم من جديد...

ولمحت حقلنا مرة أخرى.

كانت الخضرة تلوّح لي، ووجه جدِّي يتسم بين السنابل، وسواعد أولاده الفتية تهب الأرض كل دمها ولا تبالي.

كانت الوصية ما تزال طرية في آذان الأولاد، لكنها ذبلت ذات يوم، وذبل معها الحقل.

ولمحت حقلنا من بعيد.

كانت الخضرة تلوّح لي، ووجه جدِّي يتسم بين السنابل،

والشمس يحجبها سرب جرادٍ يبحث عن حقلٍ فتية السنابل كحقلنا؛ لكنني لم أخش شيئاً؛ فصورة السواعد الفتية التي تهب دمها ولا تبالي، ما تزال عالقة في ذاكرتي.

ورأيت سرب الجراد يحطّ على حقلنا.

تلفت أبحث عن السواعد الفتية فلم أجد أحداً.

انتظرت يوماً، يومين، ثلاثة ... أسبوعاً ... شهراً ... ولم يجيء أحد.

وذات مساء، رأيت أحد السواعد الفتية يفرش تراب الحقل ويبكي.

اقتربت منه. كان الدم يتفجّر من وريد ساعده..

قلت له: ما بك؟

قال: قتلني أخي.

قلت: لماذا؟

قال: لأجل امرأة!!

قلت: وأين هو؟

قال: كلهم هناك يطوقون أخصار النساء.

قلت له: والحقل، والجراد؟! ..

لكنه لم يرد.

هزرت ساعده الفتية فارتنى في يدي. أمسكت بتلابيه، ورفعته إلي بقوة، انتزعتُه من بركة الدم التي يرقد فيها، وصرخت في وجهه بكل قوة: والحقل والجراد؟! ..

لكنه لم يرد.

أعدته مهدوءً إلى بركة الدم التي يرقد فيها، وأسبلت عينيه ومضيت.

مضيت إلى المرقص لكنهم لم يسمحوا لي بالدخول.

قلت لهم: كل الذين بالداخل إخوتي وأبناء عمي.

لكنهم لم يسمحوا لي؛ لأنني كنت وحيداً.

رفعت كفي إلى السماء ودعوت الله أن يوقظهم.

وحين أفاقوا على غارات الجراد الذي كبر وتناسل من سنابل حقلهم لم يجدوا إلى جوارهم أحداً، كل الذين كانوا يشبهون سواعدهم بسواعدهم في المراقص، رحلوا خوفاً من غارات الجراد.

عادوا إلى بنادقهم فلم يجدوا رصاصة واحدة.

- هذه جمعتي التي أتعبتكم، انخروها
برصاص بنادقكم، وهذا جسدي الذي يحملها،
انخروه برصاص بنادقكم؛ لكنني لن أموت جباناً.

نظرت إلى أفراد العصابة، تأملتهم فرداً فرداً، ما تزال أياديهم
على بنادقهم، وعيونهم تقدح بالدم.
من صفق إذاً؟؟!

ازداد التصفيق والصفير حدة، رفعت بصري إلى السور الذي
طوقته فيه العصابة، فرأيت إخوتي وأبناء عمي وأصدقائي
وجيراني، كلهم يقفون فوق السور وينظرون إلي ويصفقون، بنادقهم
إلى جوارهم يملؤها الرصاص وهم يصفقون بحرارة.
غضبت العصابة من حدة التصفيق. فشدوا لساني من فمي،
وأصدقائي يصفقون.

ازداد غضب العصابة، فكسروا ذراعي وساقتي، وهشموا
ضلوعي، وهم يصفقون بحدة، استشاط أفراد العصابة غضباً،
صوبوا بنادقهم إلى جمعتي، نخروها برصاصهم، وإخوتي وأبناء
عمي وجيراني وأصدقائي يصفقون.

وفجأة توقفوا عن التصفيق، حلوا بنادقهم المعبأة بالرصاص،
صوبوها إلى أفراد العصابة، وأنا أصرخ وما زال بي رمق. أطلقوا
عليهم، أطلقوا. زال الرمح الذي أمدني بالصراخ وبنادقهم مصوبة،
ولم تغادر رصاصة واحدة فوهات البنادق..

انزعجت نفسي من دثاري، واعتدلت وسط السرير وأنا أشد
شعري وأصرخ: «أطلقوا أيها الجبناء».

تدافع أفراد أسرتي إلى داخل حجرتي. وما زلت أشد شعري
وأصرخ: أطلقوا... طوقوني بأسلحتهم، وأنا ألهث والعرق يغرقني،
وأخي الذي يشاطرنى هواء الحجرة ينظر إلي، ولا يحمل كوب الماء
ولا مندبل العرق، وأنا أنظر إليه من بينهم، انتظر منه وحده كوب
الماء وتحفيف عرقي وهو لا يفهم.

وحدها أُمي التي طوقتني بحنانها، وجففت عرقي، وامتصت
لهائي، والجميع يطوقوني بالأسئلة: ما بك؟؟
قلت لهم قتلني غفوة بعد الظهر.
ودسست رأسي في صدر أُمي وبكيت.

كانت السماء تبتم لي، ووجه جدي يلوح لي بين السنابل ويهتف

أرسلوا إلى أولئك الذين كانوا يأتون إليهم كل عام ويأكلون
ثمار حقلمهم، فلم يردّوا.

طلبوا منهم رصاصاً فلم يرسلوا رصاصة واحدة.
طلبوا منهم مبيد حشرياً، فلم يبعثوا، رغم وجود أحدث
المبيدات الحشرية لديهم. يشسوا وتكوسوا في الزوايا، سيكون
ويتقاتلون على فئات الطعام، ولا أحد منهم يتذكر وصية الجد.
أقفر الحقل، وأقفر المراقص، وأقفر كل شيء، وهذا الجراد
يكبر ويتكاثر ويغير ولا أحد يساعدنا البتة.

وبينما الجراد يغير، والصراخ يتعالى: «ألا مبيد حشرياً يرفع عنا
هذا الحصار» تحول الجراد فجأة إلى عصابة تطاردني أنا.

غاب عني الحقل الذابل، والجراد، وأبناء عمي وإخوتي،
والصراخ المتواصل وبقيت أنا وحدي والعصابة تطاردني، والمكان
سور دائري كله أبواب موصدة.

وكنت أعزل وحيداً تقهرني عيونهم.
هربت حتى أتعبني الهروب.
صرخت .. لم يستجب أحد.
صرخت مرة ومرتين، لم يستجب أحد.
صرخت ألف مرة، لم يستجب أحد.

وعدت مرة أخرى للهرب، تلفت خلفي، رأيتهم، عيونهم
تقدح بالشر، عيونهم أسلحة تقتلني، وأنا أجري أمامهم، وألف
قدم تبعني، وأنا أعزل وحيد، والأبواب كلها موصدة، وكلما قفرت
إلى حافة السور لأتعلق به وأنجو، ارتفع السور ولم تطله يدي.

ولما أتعبني الهرب تكومت في زاوية وبكيت.
كان وقع خطواتهم يوحى بالاقتراب، وحين صمتت
خطواتهم رفعت عيني الغارتين في الدمع إليهم فرأيت عيونهم
تقدح بالدم، وفوهات بنادقهم كلها مصوبة إلى جمعتي التي
أتعبتني، ونظرت إلى نفسي، فلم أجد نهر الخوف الذي كان يغرقني.
عندها انتصبت واقفاً، وقلت لهم بأعلى صوتي: -